هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا ـ المقاومة المركبة ـ

د. السعيد بوطاجين
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم/ الجزائر

مقدمة:

يعد الرحالة الألماني **هاينريش فون مالتسان (1826 ــ 1874)** أحد أهم الذين نظروا إلى الواقع الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي بنوع من الدقة والحياد. وقد كانت نظرته الاستشراقية متميزة، قياسا إلى ما ورد في كتابات فرنسية وإنجليزية وروسية، أو في مدونات بعض الكتَاب المكرسين الذين نقلوا صورا تأسيسا على منطلقات ومرجعيات خاصة: **جي دو موباسان، فيكتور هوجو، ألبير كامو، أندري جيد**، وغيرهم من الذين مجدوا، بشكل من الأشكال، الدور الايجابي للوجود الفرنسي في ما وراء البحر، أو أولئك الذين سكتوا مفضلين الأمَ على العدالة، سواء تعلق الأمر بموقف **ألبير كامو** أو غيره من المثقفين.

كتاب "**ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا** "[1]، في جزئيه، علامة فارقة في أدب الرحلة، وهو مؤثث بزاد معرفي وبلاغي معتبر بالنظر إلى أن المؤلف عالم آثار متميز، وصاحب أسلوب أدبي يتجاوز أساليب أدب الرحلة، وهو، إذ ينقل حياة المدن وتاريخها، يضمَن مواقفه من المشاهد اليومية ومن سلوك الأشخاص: الأهالي والغزاة على حد سواء، وبقدر كبير من الملاحظة والنباهة.

لقد عرف عن **هاينريش فون مالتسان**، إضافة إلى الرحلات، اهتمامه بالجزائر في كتابه الموسوم: "مدخنو الحشيش في الجزائر"[2]، وهو مؤلف يحاول

الإحاطة فيه بالجوانب النفسية والاجتماعية التي أسهمت في انحرافات فئة من الشباب في فترة الاحتلال. مع أن المسوغات الواردة قد تحتاج، في جزء منها، إلى مساءلات لمعرفة الدوافع الحقيقية لذلك، إذ يبدو هذا الكتاب أقل عمقا، وأقل زادا، مع أنه غاية قي الأهمية.

في حين أن كتاب ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا، من منظورنا، أكثر مقدرة على التعامل مع المحيط الخارجي وعلاقاته المتشابكة، وأكثر موضوعية وانسجاما من سابقه، ومن كتابه الذي ألفه أثناء سفره إلى مكة عندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره: "رحلتي للحج في مكة." وهو كتاب يحتاج إلى قراءة رغم نزعته العابثة. وقد ارتأينا، تأسيسا على ما ورد في الكتاب، التركيز على نقطتين مهمتين تعكسان تجليات المقاومة، مع أنه يمكن توسيع الموضوع إلى نقاط أخرى لا تقل أهمية.

مقاومة الدين:

يورد الكاتب في عدة متون مدى ارتباط الجزائري بالدين الإسلامي وتعاليمه، دون أن يقدم تنازلات من أجل الاستفادة من إغراءات الآخر، مهما كان نوعها، وتحت أي ظرف كان. وقد ظل هذا الآخر، محل ارتياب، كائنا دخيلا على نواميس تعد متكأ للأهالي، وسمة من السمات القاعدية التي تميزه عن المعمَر، الذي يعد، بالنسبة إليه، إنسانا مختلفا، ومعتديا على الأخلاق العامة والممارسات والشعائر. ومن الواضح أن صاحب الكتاب، أراد من وراء بعض المقاطع التأكيد على مقاومة الخصوصية التي تتجلى في عدة مواقف مثيرة. وقد تظهر، في سياقات، بمثابة نوادر، رغم تأكيد الرحالة على واقعيتها الحرفية، وعلى المعايشة.

كانت الطبقة الفرنسية الجاهلة الفظة، من حيث الأخلاق والتعامل، وهي الطبقة المهيمنة في فترة الاستعمار، من منظور الكاتب، تحتقر الأهالي، مهما كان مستواهم، ومهما كانت أخلاقهم والجهة التي ينتمون إليها، من الشمال أو من

الجنوب، عربا أو بربرا. وكان مقتهم لا يرتكز على مبررات واضحة تجعلهم ينظرون، هم الدخلاء، إلى الجزائريين كمتوحشين، أو كحيوانات برية وجب التعامل معها بازدراء لإذلالها. ومن ثم كانت هذه اللحظات الصدامية التي لا تتوقف.

وقد قدم الرحالة، بنوع من الحياد، عينات تمثيلية عن مجموعة من الثنائيات المتضادة، وهي تعكس، دون شك، المقاومة الفعلية للجانب الديني، رغم المسخ الذي برمجته الآلة الاستعمارية من أجل اجتثاث الجزائري وتغريبه في منظومة من العلامات التي لا أهل له بها. بيد أن احتماءه بالإيمان جعله يحافظ على هويته ووحدته، إن لم يكن هذا العامل هو الذي أبقاه جزائريا طوال مدة الاستعمار التي جرب فيها الغزاة كل الوسائل لتحييد الدين كعنصر قاعدي يقف ضد مشاريعها.

يروي **هاينريش فون مالتسان** في مؤلفه عدة أحداث كفيلة باستنتاج المواقف التي كانت مبنية على المعتقد، ومنها حادثتان طريفتان وردتا في مطلع الجزء الثاني من الرحلة، وهما كافيتان للتدليل على بعض أنواع المقاومة الدينية التي ميزت الأهالي خلال فترة التواجد الفرنسي في البلد، ولو كانت بشكل عفوي في جزء منها. غير أنها، مع ذلك، تعكس ارتباط الناس بمقدساتهم كركيزة وحصن يجنبهم الذوبان في معتقدات الغزاة وأنظمتهم الفكرية التي كانوا يسعون إلى تحييدها لتقوية تواجدهم.

يقول المؤلف: كان هناك طباخ فرنسي "**يشمئز من أبناء الجزائريين بصورة مضحكة، وكان يدَعي أن لديه ما يبرر كرهه للعرب. فقد خدعه أحدهم بطريقة صعب عليه أن ينساها، مع أنه كان هو الظالم، فروى لنا ظلم البدوي المزعوم له. فقد تراهن هذا الطباخ على أنه سيحمل عربيا مخادعة أو ارتشاء على تناول لحم الخنزير الذي يحرمه القرآن كما هو معروف. ولكي يكسب الرهان دعا أحد سكان قرية مجاورة إلى فندق سان كلو. وهناك قدم له طعاما من جملته دجاجة**

محمرة، كانت في الواقع دجاجة مزيفة، إذ أنها كانت في واقع الأمر عظام دجاج ملبسا بلحم الخنزير بطريقة فنية. وكان الطباخ يتصور أن العربي لن ينتبه إلى هذه الخديعة، فالدجاج يحل له أكله، إلا أنه أخطأ في هذه النقطة الأخيرة. فالعرب يحل لهم حقا أكل الدجاج، غير أنهم لا يأكلون ما يذبحه الكفار. وهكذا أكل العربي كل ما قدمه له باستثناء الدجاجة."[3]

قد لا تحتاج هذه النادرة إلى أي تحليل كما نثبت قيمتها الاعتبارية، شأنها شأن أحداث أخرى متكافئة دلاليا، وهي تقوم بالوظيفة ذاتها. لقد بقي الدين، بالنسبة إلى الإنسان الجزائري، على تبايناته الفكرية والعرقية، طيلة مرحلة المسخ التي عاشها في ظلَ قوى وحشية، أحد أعمدته التي حافظت على كيانه. لقد قاوم الإنسان الجزائري مشاريع التخريب الجذري لذاكرته وروحه بعدة أشكال، ومنها الإبادة الجماعية لكل ما له علاقة بالوطن. غير أن ارتباطه بالمقدس سيظل، مهما اختلفت القراءات وتضاربت، أهم أشكال المقاومة التي جنبته فقدان الهوية والذوبان في الآخر.

يقول المؤلف تعليقا على النادرة: "**والواقع أنه لا بد أن يكون المرء فظا حتى يستجيد اللعب بالقوانين المقدسة والتراهن عليها كما وقع في الرهان المذكور. وكان هذا الظلم الكبير هو كل ما ينسبه ابن الأمة العظمى إلى العرب، وقد كرههم من أجله...**"[4]

وكتتمة للعينة التمثيلية السابقة، الدالة على الموقف الثابت من الجانب الديني الذي لا يمكن التنازل عنه خدمة لغرض دنيوي طارئ، يقدم الرحالة نموذجا آخر يصب في الدلالة نفسها: لقد أراد الطباخ الفرنسي تجريب مدى تمسك البدوي بتقاليده وطقوسه فدعا العربي إلى مطعم " ووضع أمامه لحم الخنزير المحمر دون مواربة، ووضع تحت الطبق قطعة نقدية من ذوات الخمسة فرنكات، وعده بإعطائه إياها، إن هو أكل لحم الخنزير أمام مراهنيه مكافأة له.

والظاهر أن البدوي الذكي انتظر شيئا من هذا النوع، فتزود في النهاية بقطعة من لحم البقر، أخفاها في قلنسوته... وعرف كيف يغير لحم الخنزير من فوق طبقه... وراح بعد ذلك يأكل لحم البقر...(وقال لهم): خذوا لحمكم المحمر الدنس، فهو نجس كأرواحكم ومقرف كأجسامكم."[5]

العلامات غير اللغوية:

العلامة غير اللغوية، كما العلامة اللغوية، لها شخصيتها وهويتها، وهي إذ تحضر نصيا، فلكي تؤدي وظيفة ما، سواء تم التصريح بها أم تم إضمارها لغايات وظيفية مخصوصة. وقد وردت في الرحلة عدة علامات غير لغوية ذات دلالة خاصة. إننا يمكن أن نستنتج من سياق السرد والوصف القيمة الاعتبارية التي تحتلها في التأثيث العام وفي إبراز قوتها أو وهنها. ثمة، على سبيل التمثيل، ما يحيل على انهزام العلامة أمام ضغط الآخر وحضوره، ما يدل على انحسار المقاومة وهشاشتها أحيانا بسبب اعتبارات عديدة.

"**إن وهران، عاصمة الولاية التي تحمل نفس الاسم، يمكنها، بالنظر لطبيعة مبانيها، أن تكون في أوربا، دون أن يلاحظ المرء أية غرابة عليها. فليس هناك في الجزائر كلها مدينة فقدت طابعها العربي مثلما فقدته مدينة وهران...**"[6]

من الصعب الكشف عن مقاصد صاحب الرحلة من حيث إنه لم يصرح بذلك على مستوى التجليات اللفظية، بيد أن هذا التلميح الذكي له مغزى لا يمكن تجاهله. وإذا كانت الأشكال، في أغلب الأحيان، ليست حيادية لارتباطها الوثيق بالموضوعات والغايات والموروث والبنى المختلفة التي تسهم في تشكيل الذات وتثبيتها، فإن امتلاءها الدلالي يحيل على غرض ومعنى. لذا يمكن تأويل المتغيرات الشكلية كنوع من الاستلاب، أي كهزيمة للعلامة المحلية أمام الاكتساح الشامل للعلامات الغيرية التي لها جذورها ومقوماتها. أي العلامات ذات الشخصية

المستقلة عن المحيط الذي هاجرت إليه، أو فرضت عليه لأهداف قد لا تكون حيادية.

وبالمقابل يقدم المؤلف سلسلة أخرى من العلامات التي بقيت محافظة على أصالتها وبيئتها، وهي عادة ما تتألف من أشكال العمران وأساليب الحياة اليومية التي تميز الأهالي عن الأوربيين. وقد تغدو هذه الأجزاء مجتمعة بنية ثقافية مميزة، أو شكلا من أشكال مقاومة العلامات الوافدة من وراء البحر، سواء مع السياح أو مع المعمرين الذين يمتلكون أنظمة من العلامات التي تتعارض والخصوصية المحلية.

"**قضينا الليلة الأولى في طريقنا إلى معسكر في خيام قبيلة أولاد ميمون عند سيدي عبد الله، ونزلنا في خيمة الضيافة أيضا، إلا أنه كان علينا، وهو أمر لم أرتح له، أن ننام فوق الأرض التي كانت لحسن حظنا جافة، وذلك لعدم وجود سجادة أو حصيرة. وقدم لنا عشاء قليل يتكون من الكسرة واللبن. وجلس معنا قائد القبيلة، وهو شيخ بائس المظهر، يرتدي برنسا وسخا...**"(7)

يحيل الجانب المعجمي في هذه المقطوعة، كما في مقطوعات أخرى تؤثث المتن، على نمط معيشي شكلته حلقات تاريخية، وهو يعني، من جملة ما يعنيه، انفراد العلامة بشخصية تحيل آليا على محيط مخصوص له حضوره التاريخي والثقافي. وتؤكد المسميات والدوال: الخيام، قبيلة، أولاد ميمون، سيدي عبد الله، سجادة، حصيرة، الكسرة، اللبن، قائد القبيلة، برنس، على مقاومة حقيقية لمجموع أنظمة العلامات التي كانت تشكل وعيا مختلفا عن الوعي الزاحف بتقاليد أخرى من أجل الحلول محل الحاضر وذاكرة العلامات.

من المعروف أن لكل علامة مرجعيتها الخاصة بها، ولأن العلامات المذكورة لها إحالاتها وجذورها، فهي تشكل حصانة ضد المسخ، وقد تلعب دورا لا يقل أهمية عن دور المقاومة بمختلف الأسلحة، إن لم تتعداها في كثير من الحالات،

كما أثبتت التجربة والوقائع. وقد كانت هذه البنى الصغرى، في تناغمها وتماسكها، أداة تمييزية فرضت حضورها كقوة في مواجهة التفسخ وفقدان الخصوصية.

إننا نعتبر تلك العلامات الساكنة، سيميائيا وتداوليا، أفعالا ذات ميزة تأثيرية غاية في القوة، وفي حال ضمورها، أو انمحائها كليا، ستفتح المجال لغزو يقضي على جزء من المعرفة والشخصية. إنها، من وجهة نظر أخرى، قوة مضمرة مؤهلة لحمل كفاءة قيمية من حيث امتلائها بعناصر ثقافية وتاريخية ودينية وتراثية. وقد يكون القضاء عليها أكثر صعوبة من القضاء على علامات أخرى أقل شأنا، وأقل امتلاء، رغم قيمتها المادية، ورغم حضورها العيني.

يقول هنريش فون مالتسان تعليقا على هذا الجانب الذي قد لا نوليه أهمية في الحرب وفي التعامل اليومي: "لقد كان الفرنسيون يحتقرون الأهالي إلى أبعد الحدود، وهذا ما جعلهم لا يهتمون بدراسة عاداتهم وتقاليدهم أدنى اهتمام... فعندما تكون للمرء قضية مع أناس، متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم إلى حد التعصب لها، مثلما هو الحال عند هذه القبائل، فإن على المرء أن يتذكر أن أي مساس بهذه التقاليد المقدسة قد يجعل من الصديق عدوا لدودا بالنسبة إليها، إلا أنه من العسير على الفرنسيين أن يهتموا بخصائص الشعب الذي يضطهدونه."[8]

ما يعني أن دراسة هذه المنظومة العلاماتية، قد تفتح الطريق لمعرفة جزئياتها وتشكلاتها ودلالاتها وجوانبها الرمزية، ومن ثم البحث عن الطرائق الممكنة لفهمها والتعامل معها في حدود معينة من أجل الهيمنة الإستراتيجية. ويبدو للعيان، أن الرحالة الألماني انتبه إلى هذه المنظومة، لذا نبه إليها في عدة مقامات. لقد كان يرى أن من أخطاء الغزاة وعنجهيتهم عدم الفصل بين الأشياء، ومن ثم وقوعهم في مطبات كانت تؤدي إلى القتل، مثلما أشار إلى ذلك الكاتب في حديثه عن قتل العناية (المرابط) وانتقام أحد سكان بجاية بتصفيته جسديا.

لقد كانت العلامة حاملة لأبعاد مركبة قد تدل على الشرف والسيادة والمرجع والهوية والذات والكرم والحصانة، وهي تمثل، حتى في الحالة السلبية أو الخرافية، عنصرا من العناصر التي يقوم عليها الكيان. وقد نجد نوعا من هذا المحو المبرمج في حديث الرحالة عن إحدى المدن التي بنيت خصيصا لفئة من المعمرين، وهي تبدو، من خلال المواصفات الخارجية، مكانا بديلا عن المرجعية المحلية، أي حيزا مستقلا، ومعتديا.

"**كانت مدينة سكيكدة مدينة مثالية، يتمنى مثلها مئات من الفرنسيين الرسميين في الجزائر، فهي مدينة فرنسية حديثة، فليس فيها بيت حضري ببواكيه الهوائية، ولا فناء عربي بأعمدته الجميلة، ولا أسواق ولا أروقة ذات طابع شرقي، ولا مسجد، ولا منارة، فالفاتحون لم يأخذوا أي شيء يدل على عبقرية الأهالي الخلاقة.**"(9)

لقد سعى المستعمر، في فترات تاريخية، إلى إبادة كل العلامات الدالة على الهوية من أجل القضاء على السند، أي على مكوَنات الذاكرة الجمعية. وكان العمران، شأنه شأن المكان والصورة والبنيان واللباس ولون البشرة وأثاث الكوخ ومسمياته، إحدى هذه المكوَنات التي أسهمت، بشكل مباشر أو غير مباشر، في تقوية الحس بالانتماء إلى الأرض المسلوبة، وإلى شعب مختلف عن هذا الآخر على كافة الأصعدة.

وربما لعبت هذه العلامات، على تعددها وتلونها، وعلى عمقها وبساطتها، دورا أخطر من الدور الذي قامت به بعض السياسات والأيديولوجيات في حقب من تاريخ الجزائر. لم يكن المسجد، على سبيل التمثيل، شكلا أجوف لا وظيفة له. لقد كان، بصرف النظر عن الخطاب، دعامة حقيقية أسهمت في دعم التمايز، كما الأضرحة والأولياء والأساطير والأحاجي التي تشكلت مع الوقت وأصبحت جزءا من الذاكرة.

لا يمكن، بطبيعة الحال، إغفال الدور المهم الذي قامت به منظومة العلامات في مقاومة المستعمر الفرنسي. لقد كان للدين دوره، وكان للسياسة دور، كما للسلاح. لكن العلامات قاومت بطريقتها، وكانت مؤسسة قائمة بذاتها، كما ظلت، خلال أزيد من قرن، متكأ ساعد على النظر إلى الأحداث من زوايا أخرى، غير التي اعتمدتها مختلف المقاومات التي بنت على الخطاب اللغوي، أو على السلاح.

خاتمة: من المهم أن ينتبه التاريخ إلى هذا الجانب لأنه يستحق التفاتة أكاديمية تعيد له مكانته الحقيقية. لقد ظلت المؤسسة غير اللغوية، من المنظور السيميائي، شخصية جماعية مجردة قامت بدور أساسي في الحفاظ على الكيان الجزائري، إن لم تسهم في دعم الكفاح وتقويته بطريقتها الخاصة، كذاكرة ذات كفاءة عالية. ومن ذلك ما تعلق باللباس والشكل واللون والممارسات والنظام الغذائي والطقوس والأعياد والعمران. وإذا كان الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان قد أدرك بعض الجوانب، وأشار إليها باقتضاب، فإن البحث في المقاومة ملزم بأن يأخذ في الحسبان هذه العناصر التي تبدو حيادية، رغم قيمتها التاريخية التي لا يمكن إنكارها. هناك علامات أكثر فتكا من السلاح والأيديولوجيات المكدسة في الكتب والأذهان، كتلك التي لا تقيم أية صلة بالمحيط الخارجي وخصوصياته، أو تلك التي تسعى إلى استيراد ذاكرة الآخر في سياق متعارض مع جوهر العلامات المحلية. ذلك لأن العلامات تنشأ وتكبر وتتجذر في المجتمع عبر الوقت. إنها شعب خافت، لكنه حاضر وفعّال ومحرّك.

الإحالات:

1 ــ هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979

2 ــ هاينريش فون مالتسان، مدخنو الحشيش في الجزائر، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971

3 ــ ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا، ص. ص. 21 ــ 22

4 ــ المصدر نفسه، ص. 23

5 ــ المصدر نفسه، ص. 22

6 ــ المصدر نفسه، ص. 27

7 ــ المصدر نفسه، ص. 67

8 ــ المصدر نفسه، ص. ص.117 ــ 119

9 ــ المصدر نفسه، ص. 211